فهرسية المخطوطات العربية

كمشكلة أدبية

من المعروف جيدا أن الكتاب الضخم « تاريخ آداب اللغة العربية » لكارل بروكلمان، لا يحتوى أساسيا إلا على فهرس لفهارس المخطوطات والمطبوعات العربية باستثناء قسم نهائى شامل يتناول الأدب الحديث. ولكن من غير المعروف إلا قليلا أن هذا الكتاب يعتمد فى الغالب على فهارس المخطوطات الوصفية الكبيرة التى نشرت فى القرن التاسع عشر الميلادى، وخاصة على عشرة مجلدات من فهرس المخطوطات العربية فى المكتبة الحكومية ببرلين لوليلم أهلوارد (Wilhelm Ahlwardt)، هذه الفهارس لم تزود بروكلمان بالتواريخ الضرورية، والحقائق والموضوعات والملخصات لمعظم كتابه فحسب، بل وأمدته أيضا بنظام العرض والبسط لمواده الغزيرة الهائلة التى تحتوى على عشرات آلاف من المؤلفات، فكتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لبروكلمان، هذا المصدر المرجعى النفيس الذى تابعه وأضاف عليه الأستاذ فؤاد سيزكين فى كتابه: Geschichte des arabischen Schrif Thums يعتبر مكسبا رائعا لدراساتنا، وعملا ليس بامكاننا أن نؤدى حقه من الثناء والتقدير له، ومن المعروف أيضا أن المخطوطات العربية المنتشرة فى العالم بأجمعه — والتى لا يمكن الآن تقدير عددها الكلى الصحيح، وإحصاءها إحصاء قريبا من الواقع — أصبحت موضوعا للاهتمام المتزايد خلال العقدين الماضيين، وانها كانت فى الغالب المكتبات والاكاديميات والمنظمات الاكاديمية الأخرى التى كانت ولا تزال تحت تسجيل

المجموعات المخطوطة، و الهم الأول كان و لا يزال أن يجمع فى مجلد مناسب الحجم سجل للصنفين و عناوين الكتب فى أسرع وقت ممكن، و أن يجمع فيه أيضا المواد التى وضعت فى القرن الماضى. هذه أمنية عزيزة من وجهة نظر أمين المكتبة، و هى تصبح أكثر مهما حين يدرك الواحد بأن أعمال المراجع الاكاديمية و البيلوجرافية على اختلاف أنواعها لا تستلزم فى كثير من الأماكن فحسب، بل إنما هى أصبحت أيضا علامة الثقافة الحديثة فى عالمنا المعاصر. هذا و عند ما نرى بأننا الآن غير قادرين على عرض تاريخ الأدب العربى، يثار سؤال وثيق الصلة بالموضوع، و هو هل تستطيع فهارس المخطوطات المدونة على الأساس الفنى فقط - دون الأساس النقدى، أن توفر المتطلبات الاكاديمية و ترضيها كما يجب؟

لقد اتضح لنا هذا الأمر كمطلب ملح عاجل فى مدينة فرانكفورت (ألمانيا) عند ما بدأنا برنامجا لفهرسية ذخيرة المخطوطات العربية فى ألمانيا، فى اطار مشروع رابطة البحوث الألمانية، و بالتعاون مع الجمعية الشرقية الألمانية. و من الجدير بالذكر عند البحث فى هذا الموضوع منا أن لا ننسى ذلك الاهتمام لعلماء الغرب بهذه الذخيرة العظيمة المركبة للمخطوطات، و الذى ضعف كثيرا فى الحال، فتباطئ عمـــل التحقيق كثيرا جدا، كما لا يصادف البحث الأدبى التاريخى إلا نادرا. أما الأمور فى الشرق و إن اختلفت مما هى عليها فى الغرب و لكن توجد هناك مشاكل من نوع آخر، فعلى سبيل المثال يرضى المحققون هناك فى كثير من الحالات بالمواد المصدرية الموجودة قليلا أو كثيرا بشكل غير مرتب، و من النادر من يكون منهم فى موقف التفكير فى ان الفلولوجيا (فقه اللغة) اعتمدت على المواد المخطوطة ذات المدى الواسع بالاضافة على ما يفترض هذه المواد المخطوطة فى كثير

من الحالات ، من استخدام المعلومات الشخصية للجموعات المعينة . « فتاريخ آداب اللغة العربية » لبروكلمان - كما يعرف الجميع - ليس ناقصا فحسب ، بل إنه أيضا بسبب اختصاره يحتوى كثيرا ما على معلومات مشوشة مضللة ، و أحيانا حتى خاطئة . و لذلك ينصح كل من يبحث عن المواد المصدرية الخاصة أن يتمسك بالمنهج التقليدى القديم للحصول على معلومات صحيحة سليمة مباشرة من المكتبات بذاتها التى تملك عامة أنظمة مناسبة للبطاقات المفهرسية ، أو أن يحصل على وجه الخصوص من أحد المتخصصين للمخطوطات فى الأقطار الشرقية ، لقد وصلنا بعد إمعان النظر فى الظروف التى وضعت فيها دراسات الأدبى العرب وبعد تكميل التسجيل الابتدائى لمئات المخطوطات ، إلى أن الجواب التالى هو كنتيجة لعملنا على العدد المتزائد للمواد المصدرية التى هى من بين أيدينا :

لا يناسب الاعتماد على :

الف - بنشر حوالى عشرة آلاف عنوان من عناوين الكتب فى فهرس مختصر للمخطوطات ، و ذلك أولا لأن نسخة السجلات الحاصلة الموجودة فى مكتبة برلين تقوم فى قليل أو كثير بنفس الخدمة ، و ثانيا : لأن كارل بروكلمان قد أخذ الملخصات من هذه السجلات ، و قدرها إلى حد كبير للجلدات الملحقة . و للطبعة الثانية لكتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » .

ب - كما لا يناسب - عوضا عن هذا الفهرس المختصر للمخطوطات ، نشر مزيد من الفهارس الوصفية الشاملة مفصلة بدون ربطها بخط معين للدراسة الاكاديمية ، لأن أكثر المخطوطات تشمل المؤلفات و المقالات التى قد بحثت و درست فى الفهارس الوصفية القديمة ، أو أنها قد طبعت . فاعادة طبعها تكون غير مفيدة تماما .

و يبدو من الأنسب :

الف - اعتبار الفهرسية كبحث و تحقيق دراسة . و هذا يقتضى وضع المادة المخطوطة فى مقابل الأدب الابتدائى و الثانوى ، و هنا يجب عرض المواد الأصلية و المعلومات الوثائقية فى وضوح تام .

ب - و هذا يضمن بأن المواد ذات القيمة العظيمة لا ينبغى أن تبقى مهملة غير متداولة بين أيدى الناس .

ج - هذه القرارات المبدئية توضح بأن كل مادة من المواد تتطلب مزيدا من البحث و التحقيق ، مثل دراسة النصوص و الترجمة و رسائل مختصرة عن الشخصيات .

د - و ان مثل هذه المادة عند اعتبارها بمعزل قد تبدو قليلة الأهمية ، و لكن حين ينظر إليها كجزء من الكل ، و تلخص ، تظهر أهمية الأولى ، هذه المادة يجب أن يزود بها الباحثون ، و انها سوف تشمل على سبيل المثال مواد السير و التراجم و المواد الأدبية . و التاريخية التقليدية ، و الوثائق ، و الأوراق المختلفة الأنواع ، و كذلك البيانات المتعددة المدونة فى نهاية المخطوطات ، و العلامات و الإشارات للمخطوطات التى كانت فى يد من يملكها ، ان هذه المادة فى الحقيقة تزود ثروة هائلة من المعلومات الجديدة النادرة المباشرة التى لا يعرفها الناس كمادة أدبية مستقلة .

ه - بواسطة ذلك يمكننا أن نضمن ان المجالات الغير المكتشفة من الأدب العربى و التاريخ الإسلامى و الحضارى إلى حد كبير سوف تبرز مزيدا كمعالم و منارات موثوقة معتمدة .

و - و تكون نتيجة هذه الخطة أن سوف تصبح الفهرسية طريقا غنية ، وثيقة الصلة دائما ، حافزة لجمع المواد[1] .

دعنا نوسع الكلام هنا بعرض النموذجين ، أخذا فى نظرنا هذه الاعتبارات و المطالب . أولها : من المدهش دائما بان الاكتشافات لكثير من المخطوطات تتحول بعد الدراسة و البحث العميق إلى نوادر . بل إلى فرائد ، فمثلا مخطوطة برلين (رقم Ms. or. fol. 3142) تحتوى على معجم غير معروف بعنوان « ما اتفق لفظه و اختلف معناه » للعالم اللغوى الشهير هبة الله بن الشجرى (المتوفى ٥٤٢ هـ / ١١٣٨ م) و إن هذه المخطوطة لم تسجل فى الأدب المعجمى الشامل الأخـير ، و ليس فى أى مكان من الأدب المعجمى الثانوى[٢] . وهكذا مخطوطة رقم Ms. or oct. 3194 المشتمل على «كتاب الزهر المقطوف من فتح الروف » لمؤلف مجهول من العصر المغولى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميـلادى انه عمل أدبى مثالى للحض على الفضيلة مشتمل على كثير من الحكايات و القصص فى أسلوب « الرسائل فى فن الحكم » (Fiirsten spicqal) و إن هذا الكتاب الصغير يجب ان يذكر بصلته « بنصيحة الملوك » للغزالى الذى اقتبس منه المؤلف . و قد أصبحت كلتا المخطوطتين منذ العثور عليهما فى متناول يد الناس عن طريق العمل عليهما بالتحقيق و الترجمة و البحث ، لقد أشرنا بالفعل فى مكان آخر إلى أهمية فن السير و التراجم و معرفة علم التواريخ للعمل الأدبى لأحد العلماء البارزين مثل ياقوت الحموى (المتوفى ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) من دراسة الإجازة الوحيدة التى وجدت فى نهاية المخطوطة (رقم Ms. or. oct.3377) (طبعة و ليباذن ١٩٦٧) . دعنـا أن نواصل هذه النقطة إلى الأمام قليلا ، فان ياقوت الحموى بعد حياة واجه فيها نجاحا و فشلا كموظف لتاجر فى بغداد، و بعد سنوات من الجولات المضنية كبائع الكتب و ناسخها ، وجد موطنا ثانيا فى شمال فارس و لكنه لم يستقر له المقام فيه ، لأنه قرر أن يغادر بخارى

فى أسرع وقت ممكن حين سقطت فى أيدى المغول عند نهاية شتاء سنة ١٢١٩/٢٠ الميلادى و لكن القرار آلمه كثيرا لأجل فراقه من المكتبات العامة و الخاصة فى خراسان و خوارزم، حيث قد قضى ساعات سعيدة حلوة. و قد حاول خوارزم شاه الأخير أن يحارب المغول. و قد فضل عدد كبير من عساكره بعد الهزائم أن ينتقلوا إلى حدود آذربيجان و يذهبوا إلى الايوبيين ـ الذين حاربوهم سنوات طويلة ـ لكى لا يقعوا فى أسر المغول. فحدثت نفس المشاكل التى تحدث فى أيامنا، و منها كانت معاملة هؤلاء الأجانب الذين كانوا إلى أمد غير بعيد أعداء. و قد كان حل هذه المشكلة ايضا شبيها لما وقع فى القرن العشرين. فتخلى الأيوبيون لهؤلاء الخوارزميين من مناطق قاسية المناخ فى مشرق دمشق و جنوب مشرقها، فكان مركزهم مدينة قديمة موصوفة «بزرعاء»، و هى التى تسمى اليوم «ازرع» على حافة سهل «لجاء». و هؤلاء اللاجئون الموهوبون من خوارزم لم يأتوا معهم بالقوانين الحنفية فقط، بل سرعان ما تركوا سمتهم الثقافية على هذه المنطقة التى كان معظمها إلى ذلك الوقت مسكونة بالقبائل المتنقلة أو شبه المتنقلة. و يمكن الحصول على الشهادة الحية لهذا فى الوثائق الموجودة فى مثل مخطوطة (رقم Ms. or. oct. 3808). فاذا حاول أحد ان يقارن هذه الوثائق ـ طبقا لما وصفنا ـ بالأدب الموجود، فانه يستطيع أن يعيد بتفصيل كبير تكوين الطريق التى يتغير بها المجتمع فى بنائه، و إنجازاته بواسطة التوطين الجديد.

ثم نصل إلى الموضوعات الغير المطروقة تماما من تأريخ الأسرة أو تاريخ العلماء أو المدارس الاكادمية عن طريق تحليل الأسماء و التواريخ، و قد أصبح هذا التحليل ممكنا بواسطة دراسة المخطوطات، و هنا أستطيع

أن أقدم مثالا أو مثالين مأخوذين من الأمثال العديدة الممكنة . فلنتناول خمس مخطوطات كمصدر يمكن بها أن نكشف عن أصول و انجازات خمس أسرات، و هى الأسرة الأندلسية لابن أبى جمرة (مخطوطة رقم 3898 Ms. or oct.)، و الأسرة الرازية من حمص فى سوريا (مخطوطة رقم Ms. or oct. 623 انظر3385)، و الأسرة الخراسانية للحبوبين (مخطوطة رقم Ms. or. oct. 3531)، و الأسرة البردسية للقتاريين (مخطوطة رقم oct. 890 Ms. or.)، و الأسرة القاهرية و الاستنبولية القوصونيين (مخطوطة رقم1466 Ms. or. oct.)، و من الممكن اقتفاء أثر هذه الأسر فى بعض الحالات إلى سبعة قرون، لأن جميع أعضائها كانوا يحملون نفس اللقب أو النسبة، مما كان سببا فى خلط بعضهم بعضا على الدوام فى الأدب الأولى، و أكثر منه فى الأدب الثانوى . فعلى سبيل المثال يذكر بروكلمان (تاريخ آداب اللغة العربية، الطبعة الثانية، ٢/٥٩٤، الملحق ٢: ٦٦٦) و كذلك المطبوعات المختصة الحديثة أن محمدا القوصونى الذى يفترض بأنه كان قد اشتغل بنجاح تحت سليمان الأول (٩٢٦/١٥١٨ - ٩٧٤/١٥٦٦) و سليم الثانى (٩٧٤/١٥٦٦ - ٩٨٢ / ١٥٧٤)، و الذى كان بالإضافة على ذلك مشابها بالشاعر التركى ندائى، فقد كشف البحث الدقيق بأن الجد (المتوفى ٩١٧/١٥١١) و الأب (المتوفى ٩٣١ / ١٥٢٤) و الابن (المتوفى ٩٧٦/١٥٦٨) هؤلاء الثلاثة الذين عملوا كأطباء، و كتبوا مقالات و كتبا طبية، كان يظن بأنهم لم يكونوا إلا شخصا واحدا، مع وجود تفاصيل دقيقة لحياة كل واحد منهم، و مطبوعات لهم جميعا، و كذلك يمكن إقامة الدليل على أنه لم يكن لأى واحد منهم أية رابطة بالشاعر التركى ندائى، و أن هذا الوهم يمكن تتبعه خطأ ارتكبه صامير برجستال .

و قد

و قد ترتب على هذا الأسلوب من أساليب التحليل الدقيق أخيرا إلقاء ضوء على المشاكل الملازمة فى مثل هذا الأدب ذى الجوانب الكثيرة، كالبلاغة و النحو. و هنا أحب فقط أن أذكرك المخطوطة (رقم 972 Mr. or. oct. 33857) و بمناسبة هذين العملين يمكن القول بأن تطور هذين الفرعين (البلاغة و النحو) للدراسة الأدبية يمكن أن يتم بدقة بعد دراسة "مفتاح العلوم" للسكاكى، أو بعد "اللباب فى النحو" للاسفرائينى (المتوفى بعد ١٢٨٥/٦٨٤)، و "لب الألباب فى علم الإعراب" لأبرقوهى المتوفى فى نهاية القرن السابع الهجرى = الثالث عشر الميلادى، أو للبيضاوى (المتوفى ١٣١٦/٧١٦). و نتيجة لذلك يمكن إعادة تأليف هذين القسمين فى تاريخ آداب اللغة العربية (لبروكلمان) و قد نجحنا مرارا خلال البحث التاريخى الأدبى المزدوج فى اقتضاء أثر الأدب الاستشهادى الزائف، مثل الانتحالات (المنسوبة إلى) أبى هريرة، و التنوخى، و ابن الوردى. و أخيرا يمكن الإشارة العاجلة فى هذا الصدد إلى الأدب العربى للعصر الأموى. هذا الموضوع الذى كان و لا يزال مثار نقاش، أصبح فى مقدمة المناقشات منذ نشر المجلد الأول من «تاريخ دراسات المخطوطات العربية» لفؤاد سيزكين، و مهما وقف الباحث على الجانب المثبت من الرواية العربية، إلا أنه ينصح نصحا بالغا فى أن يفتش كل واحدة من هذه الروايات فى هذا المجال. فبالنسبة لكتاب صغير (Ms. or. oct. 1330) عن قراءة عاصم (المتوفى ١٢٧ هـ/ ٧٤٥ م) لمؤلفه الغمريتى (المتوفى ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ تقريبا) لم يمكن فقط الثبوت بأن هذه القراءة كان قد أخذت من «شاطبية»، أو من «تيسير» للدانى (المتوفى ٤٤٤ هـ/ ١٠٥٣ م) بل من المدهش أن تقدم

الأدلة المناسبة على أن أدب القراءات ابتدأ فقط مع أبي عبيد الذي توفي في ٢٢٤ هـ / ٨٣٨ م .[٣]

جامعه فرينكفورت رودولف زيلهايم
الالمانيا الغربية

. . .

---

(١) قد نشر الأستاذ رودلف زيلهايم صاحب هذه المقالة المجلد الاول من برنامج الفهرسة الكاملة Verzeichnis der Orientalischen Handschriften in Deutschland بعنوان Arabische Handschriften, Materialien zur arabischin Literaturgeschichte كالمجلد السابع عشر . و لقد وصفت المخطوطات العربية المحفوظة في ألمانيا و نوقشت في هذا المجلد الكبير (المجلة) .

(٢) الدكتور عطية رزق أكمل تحقيق هذا المعجم الهام لابن الشجري الذي سوف ينشر في سلسلة Bibliotheca Islamica _ (المجلة) .

(٣) قدمت هذه المقالة في قسم آسيا الغربية للغة العربية ، لمؤتمر المستشرقين الدولي الثامن و العشرين في كينبرا (استراليا) .